

الذات الكاتبة بين الحضور والغياب

قراءة في رواية: 'الخابية' لـ جميلة طلباوي

د. حورية قادري

جامعة طاهري محمد بشار (الجزائر)

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى معرفة مدى حضور وغياب الذات الكاتبة في رواية 'الخابية' للكاتبة الجزائرية 'جميلة طلباوي'، والوقوف على أهم القضايا والانشغالات التي تحدثت عنها الكاتبة، وعلى مدى ارتباط الذات الكاتبة بالنص، إذا متى تحضر ومتى تغيب؟ وهل هناك مبررات لهذا الحضور تارة والغياب تارة أخرى.

Abstract

This study seeks to know the extent of the presence and absence of the writer in the novel 'Alkhabia' Algerian writer 'Jamila Tataoui', and to identify the most important issues and concerns that the writer talked about, and the extent of self-authorship of the text, if and when to attend when absent? Is there any justification for this presence at times and the absence of other times?

جاءت الرواية في مائتين وعشرين (220) صفحة، مقسمة إلى أربعة فصول، الفصل الأول موسوم بعنوان: لحظات انعقاد يبدأ من الصفحة: 11-73. والفصل الثاني: المرأة مخلوق بين البشر والملائكة من الصفحة: 77-154. والفصل الثالث: دهاليز الوجد من ص: 157-168. أما الفصل الرابع: فاتح لغد قادم من ص: 171-220. وقبل اللوج إلى نص رواية وتحليل محتواه، تستوجب الضرورة الوقوف على معاني بعض المصطلحات نحو:

1- مفهوم الخابية:

فكلمة خابية لغة: كما هو معلوم مشتقة من فعل "خَبَأَ" خَبَأَ الشيء: ستره (1)، والخابية بالمعنى المتعارف عليه في مجتمعنا: أنية فخارية تستعمل لتخزين الماء أو المؤونة.

أما عن معنى الخابية في الرواية فهذا يفهم من سياق العبارات التي وردت فيها هذه كلمة فتارة الخابية: هي تلك الأنية التي تخزن فيها المؤونة أو الماء. والخابية حسب ما ذكرته جميلة طلباوي: "دفتر يدون فيه بطل الرواية كل ما أراد تدوينه تقول الرواية "...دفتر سميت الخابية، وضعت في درج مكتبي..." (2)، وتارة أخرى جاءت بمعنى الوطن. وفي مقام آخر وردت بمعنى التراث الذي سعى بطل الرواية للمحافظة عليه.

2- جدلية الحضور والغياب:

'الحُضُور' لغة: "نقيض المَغِيبِ والغَيْبَةِ" (3)

والحضور والغياب: هما ثنائية متضادة، أحدهما يلغي الآخر، يمكن للحضور والغياب أن يعمل في كل الاتجاهات المعرفية الإنسانية وهما الأصل في التفكير والإبداع الذي يحقق الوجود للنشاط الإنساني المتفوق، الذي يقوم بتحويل العالم إلى علامات مشفرة قابلة للقراءة والتأويل.

الحضور نوعان: مادي، ومعنوي، ويُمثل المادي وجود الشيء بالفعل في مكان معين، أما المعنوي فهو الحضور الذهني وهو أن تكون صورة الشيء موجودة في الذهن يدركها إدراكاً مباشراً أو إدراكاً نظرياً، أو أن يكون الذهن شاعراً بحضور الشيء (4).

قال: أبو حيان التوحيدي "والعبارة عن الشاهد مقصورة على وجدان المشاعر، والعبارة عن الغائب مقصورة على ما تغلق على المشاعر، وفي الغائب شاهد هو الملحوظ من الغائب، وفي الشاهد غائب هو المبحوث عنه في الشاهد، فالشاهد غائب بوجه، والغائب شاهد بوجه، حتى إذا استجمعا لك كنت بهما في شعارهما"(5). ولا شك في أن التنظير الفلسفي يخدم التطبيق الأدبي؛ "لأنه قد جعل من الحضور نظاماً تواصلياً بين المادي الواقعي والمعنوي التخيلي، وبقدر ما يتحقق من نجاح على مستوى التواصل يتم القبض على المرجع الغائب ولا ننسى أن الحضور بوصفه مصطلحاً أدبياً يحيل على نظرية المعرفة"(6). والحضور في النص الأدبي يختلف من جنس أدبي إلى آخر؛ لأن الأدب "تعبير عن تجربة، وهي ما يعرض للإنسان من فكر أو حادث أو إحساس"(7).

3- السارد(الراوي):

إن أول عنصر يمكن من خلاله البحث عن الذات هو شخصية السارد، حيث "يكون الراوي عارفاً أكثر مما تعرفه الشخصية الحكائية... وتتجلى سلطة الراوي هنا في أنه يستطيع مثلاً أن يدرك رغبات الأبطال الخفية، تلك التي ليس لهم بها وعيٌ هم أنفسهم"(8) وفي ضوء ما ورد في رواية الخابية صنف السارد إلى ما يلي:

أ - يظهر الراوي بالضمير المذكر على لسان بطل الرواية 'فاتح' سارد جل أحداث الرواية مما يشكل غياب الذات الكاتبة المؤنثة.

ب- هناك راوٍ آخر وهو عيسى الطبيب زوج جوهر، يظهر هذا الراوي فجأة (غياب للذات الكاتبة).

ج- ويظهر سارد يحكي عن بطل الرواية ويتمثل حتماً في الكاتبة بشكل مباشر 'حضور الذات الكاتبة' بشكل جلي.

د - ويفاجئ القارئ راوٍ آخر يتحدث بضمير المؤنث يتمثل في شخصية في 'جوهر' ابنة خالة 'فاتح'، بطل الرواية، تحكي عن نفسها وهنا حضور للذات الكاتبة المؤنثة. "(9) وهكذا تظهر الذات الكاتبة بين حضور وغياب. والغياب يلحّ دوماً على الأنا الساردة .

تعدد الرواة في هذه الرواية وفي هذا المقام يقول حميد لحميداني: "يسمح الحكي باستخدام عدد من الرواة، ويكون الأمر في شكله الأكثر بساطة عندما يتناوب الأبطال أنفسهم على رواية الواقع واحداً بعد الآخر ومن الطبيعي أن يختص كل واحد منهم بسرد قصته، أو على الأقل بسرد قصة مخالفة من حيث زاوية النظر لما يرويها الآخرون، وهذا ما يسمى عادة الحكي داخل الحكي، وعلى مستوى الفن الروائي يؤدي هذا إلى خلق شكل متميز يسمى الرواية داخل الرواية" (10) .

ومعنى ذلك أن تتعدد الرواة قد يؤدي حتماً إلى تعدد وجهات النظر.

لذلك يقوم الحضور بالإحالة إلى تلك التجربة التي استقى منها الأديب عن طريق عناصر خاصة في كل جنس أدبي، ففي النص الروائي تحديداً - وهو موضوع الدراسة - يكمن حضور في الشخصيات، والأحداث، وفي الفضاء الزمكاني، فالحضور إذن هو "تصوير وتكوين، حيث ترى الأحداث وتشكل الشخصيات فيما بينها مجموعات متقابلة متدرجة، وتتألف الكلمات داخل علاقة دلالية بقوة البنية تتجاوز معه وتتركب به"(11)

وفي ضوء ما تقدم يمكن للحضور والغياب أن يعمل في كل الاتجاهات المعرفية الإنسانية وهما الأصل في التفكير والإبداع الذي يحقق الوجود للنشاط الإنساني المتفوق الذي يقوم بتحويل العالم إلى علامات مشفرة قابلة للقراءة والتأويل.

4- تصنيف النص:

صنفت النص إلى صنف النصوص الواقعية، والسبب أنني وجدت الذات الكاتبة لصيقة بالنص هذا ما جعلني أتخذ من نظرية الانعكاس مطية لتحليل رواية الخابية، ففي الخطاب الواقعي يتحدد الحضور والغياب على وفق منطلقين الذات التي تمثل المستوى الثابت في كشف المعنى من ناحية، والواقع الموضوعي من الناحية الأخرى.

كما لا يمكن أن نستدل على وجود الدوال، أو قيمتها إلا بتوفر مثير انفعالي يسمح بأن تحل المفردات محل مفردات أخرى، وأساس ذلك هو الرمز الذي يحمل المادي والمعنوي معا وبدورهما يحركان الذهن، الذي يحدد إمكانات حضور المدلول، وقد امتلأ بحقيقة سيكولوجية يطابق ظاهرها باطنها، فالوعي الداخلي ووعي فردي، يمتاز بذاكرته التي تعكس الحضور الذي يتفق ومعناه من حيث أنها تجربة موضوعية تحل محل أمر مشابه.

وفي ضوء ما تقدم يمكن للحضور والغياب أن يعملوا في كل الاتجاهات المعرفية الإنسانية وهما الأصل في التفكير والإبداع الذي يحقق الوجود للنشاط الإنساني المتفوق، الذي يقوم بتحويل العالم إلى علامات مشفرة قابلة للقراءة والتأويل.

5- مضامين النص:

جاءت رواية الخابية محملة بهموم وانشغالات كثيرة، تضمنت عدة قضايا من أهمها:

أ - **قضايا تاريخية:** تمثلت في الحديث عن مختلف الفترات التاريخية التي مرت بها البلاد بدءاً بالفترة الاستعمارية، إلى فترة ما بعد الاستقلال، إلى العشرية السوداء، وحتى يومنا هذا.

وكان الوقوف على شوارع المدينة نحو: شارع العقيد لطفي، شارع 'الزاوي ذياب' وشارع 'الأمير عبد القادر'، وقفة مع التاريخ من خلال التذكير بأسماء الشهداء، تقول الرواية: "عبرت شارع العقيد لطفي توقفت طويلاً في شارع الزاوي ذياب، وقد قذفتني إلى المكان لحظة تيه سأحدثكم عنها لاحقاً..." (12)، ومن خلال هذا الموقف، ترمي الكاتبة إلى تنبيه القارئ إلى الأمانة التي استودعها الشهداء في أعناق من بقوا على قيد الحياة، وأعناق من جاءوا بعدهم.

ب - **قضايا ثقافية:** وتمثلت في الدعوة إلى المحافظة على التراث الضائع، كترميم القصور القديمة، كذلك حرصت الكاتبة على ذكر معظم الأطباق التقليدية نحو: طبق الكسكس، لمسمن، لمخلع الحساء بالتوابل وغيره من الأطباق المعروفة في منطقة الساور، وأنواع عديدة من الألبسة التي عرفها سكان المنطقة كالعباءة، والإيزار، والغناس...، كما أنها لم تغفل عن ذكر الكثير من الأثاث كالزربية والأواني النحاسية وغيرها. وفي ما ذكرته الرواية يمكن للقارئ أن يكتشف تراثاً زاخراً يدفعه للفخر بإرثه الثقافي تارة، ورغبة في استكشافه تارة أخرى.

ج - **قضايا اجتماعية:** صورت لنا الرواية نمط الحياة الاجتماعية الذي كان يستحضره بطل الرواية بين الفينة والأخرى ليزيد المتلقي لهذا النص شوقاً وحنيناً لجلسات حميمية وصفت من خلالها الرواية مظاهر التزاور والتراحم بين الأقارب والجيران، والتعاون والتآزر اللذان كانا سائدين بين الناس في زمان مضى، نحو ذكر ظاهرة 'التوزيع' (13) التي أصبحنا نفتقدها في أيامنا هذه.

تحدثت الرواية أيضاً عن مشكل الهجرة، حيث أن البطل فاتح، ترك خدمة الأرض، وراح يبحث عن الرزق من وراء البحر، حينها يقول نادماً: "...تلك الأنهار التي طهرت روعي من لحظة حمق حين ملأت سلة أمانتي بوهج النجاح وراء البحر" (14)، لقد غاب فاتح عن الوطن واكتوى بلهب الغربة، بعد خيبة أمل تحولت فيها الجنة الموعودة إلى نار أحرقت الأمانتي التي لطالما عاشها في أحلام يقظته، انزاحت الغشاوة، وانجل الضباب عن عينيه، وتبدد كل شيء، حينها شدَّ بطل الرواية رحاله ليعود إلى وطنه، وإلى حضن أمه الدافئ. وأدرك أن مكانه الإنسان ليست هناك حيث كان مُهمَّساً وغائباً، عاد ليثبت كيانه وينعم بحضوره بين أهله أحبائه.

د - **قضايا اقتصادية:** نحو تبويض الأموال كما فعل 'قادة الحوت' بائع المخدرات في هذه الرواية، وكذلك صفقة الأدوية المنتهية الصلاحية تقول الرواية: "سعاد كانت من تلك السلالة التي لفظها البحر إلى الضفة الأخرى... أمضت اتفاقية بيع أدوية مغشوشة تُحمَّل إلى بلدي" (15). وهذه التفاتة من الكاتبة تتم عن حبها وغيرتها وطنها، وهذا أيضاً يسجل حضور الذات الكاتبة، وكيف أنها أشارت إشارة لبيب إلى تلك الآفات الفتاكة في مجتمعنا.

6- الجانب النفسي:

أ- **خيبة الأمل:** لقد طغت حالة نفسية مزرية، متشائمة مشحونة باليأس وخبية الأمل؛ واتضح ذلك من أول فقرة لأول صفحة تقول الرواية: "...وقد قذفتني إلى المكان لحظة تيه سأحدثكم عنها لاحقاً..." (16)، حيث تجلت مظاهر لخبية الأمل هذه في مواطن كثيرة من الرواية نحو: "...لحظات الاختناق والخبية" (17).

"ستعود في النهاية معطوب حلم في حقائب ذاكرتك كثير من الأرق في ليل يشبه الخيبة" (18)
"...التي اكتسحها جليد الخيبة" (19)

"ألغي الاجتماع الذي كان مقرراً مثلما تلغى أحلامنا وتوَّجل أفراننا" (20)

"لأعطي نفسي فرصة أن أفرح، أن أنتصر على شعور بالإحباط" (21)

"خبية أخرى تسلمني لإحباط شديد" (22)

"الخبية أجلس رقية على الكرسي..." (23)

"الإصابة بخبية الأمل هي كالإصابة بوعكة تماماً..." (24)

إلى آخر فقرة من آخر صفحة يقول بطل الرواية: "تھاویت لحظتها لا أقوى على الحراك ومرارة الخيبة تمزقني ربما أحسن سي مختار برحيله لن يُفجع في فشل مشروع، ولو أنني بحاجة إليه لأخبره بأنّ القصور ليست وحدها من يحتاج إلى ترميم، ذاكرتنا المعطوبة هي الأخرى بحاجة لمن يسعفها، بحاجة إلى ترميم" (25).

فهاجس الخيبة طغى على نفسية بطل الرواية، مما جعله يفقد الأمل في تحقيق حلم ظل يطارده والمتمثل في ترميم القصر من بداية الرواية حتى نهايتها، وترميم القصر هو ترميم للذاكرة الجماعية، وعودة المجد الضائع، وهو أيضاً إثبات الذات وترسيخ الهوية والانتماء.

وفي ضوء ما سلف ذكره، تحولت آمال الخابية إلى خيبة سيطرت على بطل الرواية كما لم تسلم منها شخصيات متعددة في هذه الرواية.

ب- **هاجس الأمومة:** كان هاجس الأم الذي لم يفارق بطل، وفي مواقع كثيرة من هذه الرواية يعكس حضور الذات الكاتبة بعواطفها الجياشة نحو الشعور بالحنين إلى مرحلة الطفولة والماضي الجميل، والأم في هذا المقام هي الأم البيولوجية التي هي ينبوع الحنان الدافق، وموطن الأمان في قلب كل إنسان مهما كان سنه، ومهما كانت عقيدته، ومهما كان مركزه الاجتماعي تقول الرواية: "...دعوة أمي لنا لتناول العشاء..." (26). ثم "تمتت والدتي..." (27). عليها إطار ضم صورة والدتي في ريعان شبابها" (27). وفي ضوء هذه الشواهد المتوالية في نص الرواية نستشف تعلق البطل بالأم.

كما أن هناك أم أخرى هي الوطن، الذي يجمع الكل تحت مظلته، فإنسان بلا وطن فرد ضائع بلا انتماء، والوطن عزة وكرامة، وبطل الرواية أثبت حبه لوطنه من خلال غيرته وانشغالاته المتعدد نحو هذا الوطن.

ج- **الأنا الذكوري:** لقد جاءت لغة السرد على لسان البطل بضمير المذكر في جل أجزاء الرواية؛ على الرغم من أن صاحبها 'جميلة طلباوي' أنثى؛ وكثيراً ما نتساءل لماذا تكتب المرأة ما تكتبه على لسان رجل؟ أهو استنكار لذاتها؟ أم هو المقام الذي فرض عليها ذلك؟

وحسب رأيي:

أولاً: وبالنسبة لمثل هذه النصوص التي تعالج قضايا تخص كل من الجنسين الرجل والمرأة على السواء؛ يصبح الأنا مشتركاً لا يميز ذكر عن أنثى؛ فالوطن للجميع، والمحافظة على التراث مهمة الجميع وهكذا.

ثانياً: إن انتماء الكاتبة إلى أسرة محافظة، وفي مدينة محافظة، هو ما جعلها تتخفى وراء بطل الرواية 'فاتح'، فالأدوار التي كان يقوم بها كالجلوس في المقاهي، وفي مجالس الموسيقى وغيرهما من المواقف المخصصة للرجال دون النساء في مجتمعنا، وكما هو معلوم أن الرجل في مجتمعنا يمتاز بحرية أكثر من المرأة، ولو أن 'جميلة' وظفت 'فاتحة' مكان

'فاتح' لنظرنا إليها بعين التعجب والحيرة، كل هذا يشفع للروائية موقفها من استعمالها الضمير المذكور عوض الضمير المؤنث، وهذا الموقف لا يعد غياباً للذات الكاتبة في نظري.

ومن هنا يمكننا القول بأن الذات الكاتبة المبدعة لصيقة بالنص وحاضرة حضوراً جلياً، بذكرياتها، وبانشغالاتها، وغيرتها على وطنها، وحتى بوظيفتها الإعلامية وكأنها بوصفها المكان من ذكر للقصور القديمة المتعددة بالمنطقة، والأطباق التقليدية، ووصف للجلسات الحميمة التي تجمع الناس في هذه الأماكن المحافظة تدعو كل من يقرأ هذا النص إلى جولة سياحية .

7- البعد المكاني في رواية الخابية:

وظفت الرواية المكان توظيفاً اندمج مع هوية الشخصيات التي حركت الأحداث متفاعلة إلى درجة الانصهار، بمعنى أن شخصيات الرواية تعكس المكان، والمكان بدوره يعكس هوية هذه الشخصيات. إن المكان الروائي بناء لغوي، يشيده خيال الروائي، والطابع اللفظي فيه يجعله يتضمن كل المشاعر والتصورات التي "تستطيع اللغة التعبير عنها ذلك أن المكان في الرواية ليس هو المكان الطبيعي أو الموضوعي وإنما هو مكان يخلقه المؤلف في النص الروائي عن طريق الكلمات ويجعل منه شيئاً خيالياً" (29)

أما عن في رواية الخابية فيتكون أساساً من التجربة الجمالية الذاتي يحتوي الذاكرة والتخييل، ويساهم في سير الأحداث، وتحديد طبيعتها، وللمكان سلطانه على النفس البشرية وروابطه البالغة الأهمية في شد الإنسان إليه. مما جعل بطل الرواية يختار الوطن ويناضل من أجل تحقيق ذاته. ويعد القصر القديم ذلك الفضاء الذي يتنفس فيه الهواء الممزوج بعبق التاريخ، المحمل بذكريات الماضي الجميل.

كل ذلك سرده الكاتبة بلغة سلسلة، بعيدة عن كل تعقيد، وعلى الرغم من قصر النص إلا أنه يحمل شحنة دلالية وكثافة معنوية، مكنت جميلة طلباوي من مسح تاريخ الجزائر المرير من الفترة الاستعماري، ثم فترة ما بعد الاستقلال، مروراً بالعشرية السوداء في تاريخ بلادنا، إلى يومنا هذا.

ورد في النص ما يشير إلى دعوة سياحية: لزيارة منطقة بشار، حيث يقيم بطل الرواية قامت الروائية بعملية مسح للمدينة وضواحيها - مسحة جغرافية - ذكرتنا بأسماء أماكن لم يعد أهل المدينة يذكرونها وغابت عن الجيل الجديد، كمطقة النوادر وبركة 'حمو قيو' * ومنطقة الكراكر ** والبساتين التي كانت تملأ أرجاء مدينة بشار.

الإحالات:

1. لسان اللسان تهذيب لسان العرب، ابن منظور، ط: 1993، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص: 313.
2. رواية الخابية، ل: جميلة طلباوي، ط: 1، 2014، صدرت عن منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار (ANEP)، الجزائر، ص: 29.
3. لسان اللسان ص 266.
4. التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني، المعروف بالسيد الشريف، الدار التونسية للنشر، تونس، 1971، ص: 87.
5. دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ، ط2، 2004 مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر: 262.
6. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985 ص: 159.
7. ينظر: شعرية السرد في شعر أحمد مطر، دراسة سيميائية جمالية، عبد الكريم السعيد، دار اليقظة الفكرية، دمشق، ط2008، 1، ص: 23.
8. بنية النص السرد، من منظور النقد الأدبي، حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ص: 47.
9. الخابية: ص: 157 - ص: 168.

10. بنية النص السردى، ص:49.
11. جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لنجمان،
12. مصر، ط1، 1995، ص:204.
13. الخابية: ص:11.
14. التوزيع: هي حملة تطوع وتعاون كانت سائدة بين سكان المنطقة.
15. الخابية: ص:15.
16. الخابية: ص:17.
17. الخابية: ص:11.
18. الخابية: ص:15.
19. الخابية: ص:16.
20. الخابية: ص:43.
21. الخابية: ص:21.
22. الخابية: ص:57.
23. الخابية: ص:61.
24. الخابية: ص:62.
25. الخابية: ص:67.
26. الخابية: ص:220.
27. الخابية: ص:68.
28. الخابية: ص:69.
29. الخابية: ص:70.
30. بدرى عثمان. بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، ط1، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، 1986م، ص:94.
- *بركة حمو قيو: هي بركة تقع بوادي بشار، أما حمو قيو: تحكي الخرافة أن ماردا بهذا الاسم كان يسكن البركة.
- **الكرار: هي أكوام من الحجارة (قبور قديمة)، يحكى أن رجل الصحراء إذا ما عجز عن قوت يومه ولم يعد قادرا على أن يعول أسرته ينتحر تحت كوم الحجارة التي أعدها لهذا الغرض.